سنة ٣٣١ قبل المسيح وعاد الى فينيقية وجاء صور ونظم امورها ثم ودّع سواحل بحر الروم وغاص في قلب اسيا كما سيجيء

هذه خلاصة ما ذكره المؤرخون الاقدمون من اليونان والرومان ونقله عنهم كتّاب الافرنج اما مؤرخو العرب فابن الاثير اجتزى عن ذلك كله بقوله ان الاسكندر بنى الاسكندرية بمصر. واكتفى ابن خلدون بقوله وفتح (الاسكندر) كثيراً من مدن الشام ورجع الى طرسوس نزحف اليه دارا ولقيه عليها فهزمه الاسكندر وافتتح طرسوس وبنى الاسكندرية ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله ولم نرَ لغيرهما كلاماً صريحاً عن مجيء الاسكندر الى القطر المصري

شهيد التجارة

للتجارة شهداء كما للديانة والدين يستشهدون في سبيل المال يفوقون الاحصاء وما الفرسان طلاّب المعالي الذين تسيل على حد الظباة نفوسهم بابسل من طلاّب المكاسب الذين يخوضون البحار ويجوبون القفار لاجل مال يكتسبونه و بضاعة يبتاعونها. وقد اطلعنا بالامس على رسالة رجل من سكان بطرس برج وصف فيها ما لقيه من الشدة في قلب افريقية وهو يطلب فيها ريش النعام فترجمناها تفكهة للقراء وذكرى للذين يتقاعدون عن السعي منا ويحسبون اننا نستطيع ان نجاري الاوربيين من غير ان نأخذ اخذهم . قال الكاتب :

انتظمت سنة ١٨٨٨ في خدمة بيت تجاري من اكبر البيوت التجارية في بطرس برج له معاملات واسعة في البلدان الشرقية ولم اكد انتظم في خدمته حتى دعاني احد الشركاء فيه الى مكتبه وقال لي استعدّ للذهاب الى مدينة بيروت وقابل فلاناً وامض معه الامر الفلاني . فسافرت حالاً وبلغت بيروت في عشرة ايام وقضيت العمل الذي اتيت لاجله وقبل ان اسافر منها جاءتني رسالة برقية لارجع الى ازمير وانتظر الاوامر فيها فعدت الى ازمير ورأيت مع البريد كتاباً أُمرت به ان ابتاع كل ما اجده من ريش النعام في تلك المدينة فصدعت بالامر ولم يكن الاّ قليل حتى جاءني احد المديرين في ذلك البيت واسمه ليانغوف وقال لي ان استعد للسفر معه الى مصر وهناك نبتاع كل ما تصل يدنا اليه من ريش النعام قطعاً بيننا احد

ولم اكن قد استرحت من وعثاء السفر فكدت ارفض طلبه وليتني رفضته ولكن مطالب الاعمال قضت عليّ بالقبول فاتينا الاسكندرية ولم نجد فيها ريشاً فصعدنا الى القاهرة ولم نقم

فيها الاّ يومين ثم سرنا جنوباً حتى بلغنا اصوان بلاد النوبة فاشترينا كل ما وجدناه فيها من الريش وعدنا الى القاهرة وبعثنا به الى روسيا واقمنا ننتظر الاوامر فوصل الريش وبيع بثمن عالٍ جداً وكنا ننتظر ان نُشكر على ما فعلنا و يباح لنا ان نعود الى بيوتنا واذا نحن برسالة يقال لنا فيها ان نصعد الى قلب افريقية الى ولاية الكنغو حيث يكثر النعام وان ننتظر بضاعة ارسلت الينا لنأخذها معنا ونقايض بها وجاءتنا هذه البضائع وهي من الاساور والدمالج والخواتم والخرز وما اشبه مما يُتجر به في قلب افريقية

فاسقط في يدي لانني كنت قد تعبت كثيراً في سفري براً وبحراً واشتقت الى اهلي وكانت الثورة ضاربة اطنابها في بلاد السودان والدراويش لا يبقون على تاجر وقد اسروا بوقلد ونكَّلوا به وهب اننا نجونا من يدهم فالبلاد التي أُمرنا بالذهاب اليها وبيئة كثيرة الحيات لا نسلم منها اذا سلمنا من اهلها. وظن ليانغوف ان في الرسالة البرقية خطأً واشار عليَّ بالرجوع معه فلم اعمل بمشورته بل قلت له قد لا يكون في الامر شيء من الخطر لان التجار يعدون الى قلب افريقية دوماً . وبعد اللتيا والتي قرَّ رأينا على الصعود الى قلب افريقية فاستأجرنا ستة من السودانيين ليخفروا بنا الى لادو عند حدود ولاية الكنغو وحملنا بضائعنا على الجمال وقمنا في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٨٨ وسرنا جنوباً حتى بلغنا الدامر في بلاد النوبة وكنا في خطر دائم من الدراويش لكننا نجونا منهم واقمنا في الدامر يومين وغادرناها وجعلنا نطوي صدور الارض على الاعجاز الى ان بلغنا لادو بطريق البحر الابيض بعد سير ثلاثين يوماً وهناك تركنا السودانيون الذين رافقونا من القاهرة فبقينا وحدنا انا وليانغوف في بلاد لم نطأها اقدامنا قبلاً ولا نعرف شيئاً عنها ومع ذلك عزمنا ان نبذل جهدنا في مصلحة البيت الذي نحن في خدمته شأن مكاتبي الجرائد الذين يخوضون معارك القتال ليجمعوا الاخبار لجرائدهم . وكنا نتوسل الى اولئك الزنوج ليبقوا معنا و يرافقونا في سفرنا فلم نرَ منهم غير الاعراض فقلنا ان كان هؤلاء لا يأمنون على انفسهم في بلادهم فكيف نسافر فيها نحن وحدنا ومن يقينا من اهلها البرابرة . ولذلك قال رفيقي لا بدَّ لنا من العودة ولو بخفي حنين، ولو جمع على رأيهِ لاضطررت ان اعود معهُ ونجونا مما لقيناهُ من المخاطر لكنهُ كان متردداً فقلت لهُ انني عازم على قطع بلاد الكنغو الى مدينة اكواتورفيل في طرفها الغربي حيث كنت واثقاً اني اجد كثيراً من ريش النعام فلم يرضَ ان يتركني وحدي بل قال انهُ يرافقني اليها وكان معنا دليل اسمهُ ابركال فقال انهُ يمضي معنا فسررنا بذلك ووعدناهُ بعطية سنية حال رجوعنا والحال مشى واستأجر لنا نفراً من الحمالين فاتوا بحرابهم وتروسهم وهم من الزنوج

الفاحمي الالوان ومن اشدهم شراسة وكان من رأي ابي كمال ان نذهب الى ملك البلاد ونسترضيه بالهدايا فاعجبنا ذلك في اول الامر ثم خطر لنا انه قد يكون من اكلة لحوم الناس فيشتمنا ويوقع بنا فعدلنا عن الذهاب اليه واخترنا عشرة من الحمالين وسرنا بهم في طريق الكنغو ولم نكن نعرف كلمة من لغتهم لكن ابا كمال ادّعى انه يفهم كل اللغات الافريقية وكان يتوخى كل ما يرضينا ولو بالكذب فكلمهم كلاماً لم نفهمه فاخذوا يقعون برطاناتهم واخذنا معنا حميراً من لادو ركبناها وسرنا ووجهتنا مدينة أكواتورفيل فمررنا في حرج غياض وآجام وبيئة وعبرنا انهاراً كبيرة وتجشمنا من المشاق ما يعجز عن وصفه القلم الى ان قربنا من تلك المدينة وذلك في التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٨ واذا نحن باكمة في سفحها قرية كبيرة فلم نشأ ان ندخلها قبل ان نعرف شيئاً من احوال اهلها فصعدنا على الاكمة ودعوت الحمالين وقلت لهم ان يمضوا الى القرية ويسألوا عن ريش النعام فيها واعطيتهم كثيراً من الخرز والاساور والدمالج ونحو ذلك من البضائع التي تستعمل بدل النقود ولم نكن قد فتحنا صناديقنا امامهم قبلا فدهشوا مما فيها واخذوا يصيحون ويقولون ما معناه انهم يرجعون محملين بريش النعام وطلب ابو كمال ان يمضي معهم الى القرية فاذنّا له في ذلك فساروا الساعة الثالثة بعد الظهر وجلست انا وليلنغوف تحت شجرة في انتظارهم وكان معنا بنادق ومسدسات . ومرّت اربع ساعات ولم يرجع احد منهم فداخلتنا الظنون وخفنا ان يعود علينا اولئك الرجال مع نفر من اهل القرية ويفتكوا بنا وينهبوا كل ما معنا . واطللنا على القرية فرأينا الناس فيها كالنمل يجيئون ويذهبون وغابت الشمس وخيم الظلام وانتصف الليل ولم يرجع احد فيئسنا من عودتهم وعزمنا ان نرجع ادراجنا

وكان البعوض قد اهتدى الينا وهجم بجيوشه الجرارة علينا فضرّجت وجوهنا وايدينا بالدماء وقمنا لنعود من حيث اتينا واذا نحن بضجة عظيمة في القرية فالتفتنا اليها واذا مئات من الزنوج والمشاعل في ايديهم وبعضهم يرقصون وبعضهم يضربون الطبول فقلت في نفسي انهم قبضوا على رجالنا وذبحوهم واكلوهم وهم يظهرون ابتهاجهم بذلك . وبينا انا افكر في هذا الامر ونفسي تجيش من التفكر فيه اذ سمعت اصواتاً خفية فالتفت واذا انا باشباح سوداء تدنو منا فصحت حاسباً ان الساعة قد جاءت ثم امعنت نظري ووثبت قائماً وقلت لليلنغوف هؤلاء رجالنا وابو كمال معهم وكان كما قلت فان الرجال عادوا ومعهم احمال من ريش النعام فسألناهم عن سبب غيابهم وعن الضجة في القرية فقالوا ان الزنوج كانوا يزجرون النمر عن القمر بطبولهم وهذه عادة لهم

وبعد يومين اشار علينا الرجال ان نمضي الى مكان اسمه بنجي في وسط بلاد الكنغو

فانه بلغهم ان فيه كثيراً من ريش النعام لكن سكانه من اكلة لحوم الناس ومن شرسهم . ولم يكن ليانغوف قد نسي هول تلك البلدة فاشار ان نكتفي بما معنا ونعود بما معنا لكنني اطمع بالكثير وعزمت ان امضي وحدي فاضطر ان يمضي معي فبلغنا نهراً سميناه شوبا واستأجرنا قوارب مصنوعة من اشجار مجوفة وسرنا فيها الى ان بلغنا مصبه فقال الخانون ان الناس الساكنين حول مصبه عندهم كثير من الريش فسرنا حوله فرأيناه مكتنفاً بالآجام ولم يكن الا قليل حتى سمعنا صراخاً يصم الآذان فقال لنا رجالنا ان هذه اصوات الجياع في ولعة من لحوم الناس فلم نعبأ بقولهم بل بقينا سائرين في قواربنا الى ان دنونا من قريتهم فلما رأونا نهضوا واجتمعوا على الضفة واخذوا يصرخون صراخ الحرب فوقفنا لا ندري ما نفعل فزاد صراخهم واخذوا يرقصون ويهزون الرماح فجعل رجالنا يغنون غناء يفهم منه انهم ليسوا اعداء بل اصدقاء لكن غناءهم لم يجد نفعاً لان خصومنا ظلوا يصرخون ويضجون والتفت الى ليانغوف فرأيته كئيباً كأنه يئس من النجاة فامرت الرجال ان يجدفوا لكي نبعد عن تلك القرية فلم يفعلوا وافهموني ان كل الناس الذين غربيهم مثل هؤلاء او اشرس منهم فقلت لهم اذن انزلوا الى البر وكلموهم ليكفوا عنا فنزلوا وكلموهم وحاجوهم فادّى الحجاج الى التشاجر والحال اشتبك القتال بين الفريقين ولما رأيت ذلك اعطيت ابا كمال مسدساً من مسدساتي واخذنا نطلق عليهم الرصاص فهجموا علينا وخاضوا الماء واتوا القارب الذي كنا فيه وبذلنا جهدنا في دفعهم عنا وكنا ندفع واحداً فيأتي عشرة بدلاً منه واخيراً قلبوا القارب فغرقت كل امتعتنا وبضائعنا وسبحت انا الى الشاطئ ولم اكد اصل اليه حتى وجدت الزنوج حولي فقبضوا عليّ وربطوني وحملوني الى كوخ من اكواخهم ووضعوا يديّ ورجليّ في مقطرة محكمة وجعلوا يرقصون حولي

ويا لها من ساعة بل من ساعات ذقت فيها الموت صنوفاً وفضلته على الحياة وقلت في نفسي ترى ما اصاب ليانغوف وابا كمال ووددت ان يكونا قُتلا لينجوا من هذا العذاب . ثم جرّني اولئك البرابرة الى ساحة قريتهم ولمحت هناك ليانغوف وكان يبكي ويستغيث ولا مغيث فاغمضت عينيّ لكي لا اراه ووددت ان اسدّ اذني لكي لا اسمع صوته ثم فتحت عيني واذا انا بمنظر تقشعر منه الابدان وترتجف الفرائص شجرة كبيرة علّقت عليها جماجم الناس وبذرت تحتها حتى غطّت ارضها فاوصلوني اليها واوقفوني بجانب جذعها وربطوني اليه بحبال مفتولة من النبات ربطاً وثيقاً جداً ولما اتموا ربطي سمعت صرخة شديدة ورائي صرخة رجل ضُرب ضربة قضت عليه فعلمت انهم قتلوا رفيقي ليانغوف . وعلا صياحهم حينئذ واخذوا يرقصون ويطبلون واضرموا ناراً واظنهم شووه عليها واكلوه لانني كنت اشمّ رائحة الشواء . وبقيت الى ان حين الرجاء

لا ينقطع ما دام الانسان في قيد الحياة اما انا فانقطع حبل رجائي حينئذٍ واقمت انتظر دوري لحظة بعد لحظة لكن البرابرة ابعدوا عني وظلوا يصيحون ويغنّون ويرقصون الى ان غابت الشمس وخيم الظلام وكان رباطي شديداً فخدرت اطرافي كلها ولم اعد اشعر بها بعد ان المتني المًا مبرحًا. وحينئذٍ خطر ببالي ان احاول تقطيع الحبال باسناني فاخذت اقرضها قرضاً وبعد عناء شديد تمكنت من قطع الحبال القريبة من عنقي ثم قرضت ما على عن يديَّ منها وقضيت في ذلك الليل كلهُ وكانت الحبال على رجلي متينة وكاد الفجر يبزغ وكنت لابسًا جزمةً طويلة وهي عليها فحاولت نزع رجليَّ من الجزمة وبعد عناء شديد انخلعت بهِ قدماي تمكنت من نزع رجليَّ واخذت ادبُ على يديَّ وركبتيَّ الى ان وصلت الى مصب النهر فرأيت بجانبهِ خشبة كبيرة فجررتها الى الماء وركبت عليها وسلمت نفسي للتيار ولما مسَّ الماء جراحي اعاد آلامي الى شدتها لكنني صبرت عليها . وحملني التيار واوصلني الى مدينة اكواتورفيل وهناك وجدت من اعتنى بي وعالج جراحي وسافرت منها الى البلاد التي لالمانيا في شرق افريقية ومنها الى زنجبار . وحتى الآن اسأل نفسي قائلاً ما منع البرابرة من اكلي قبل رفيقي

الشركات الماليَّة

كانت مدينة لندن تستقي ماءها في عهد الملك جمس الاول (١٦٠٣ — ١٦٢٥) من ثلاث قنوات تجري في شوارعها اما جر الماء من هذه القنوات الى المنازل بانابيب من الرصاص او بحمله في القرب اليها مثل اكثر المدن في هذا القطر وكانت هذه القنوات متفرعة من نهر التمس على قذارته فخطر لجوهري اسمهُ مدلتن ان يجرَّ الماء النقي الى المدينة من مكان بعيد وانفق كل امواله في هذا السبيل ولما رأى انهُ يعوزهُ المال ايضاً لاتمام عمله الف شركة رأس مالها ٧٢٠٠ جنيه قسمهُ ٧٢ سهماً كل سهم منها بمئة جنيه ولجأ الى الملك جمس الاول فابتاع منهُ نصف هذه السهام وفرغ من جر الماء الى المدينة سنة ١٦١٣

ومضت عشرون سنة واهالي لندن لايعبأون بهذا الماء واسهم الشركة لا يربح السهم منها سوى ستين غرشاً في السنة او نحو نصف في المئة . ثم اقلع الناس عن جهلهم وجعلوا يستقون من هذا الماء ويجرونهُ الى منازلهم فزاد ربح الشركة وبلغت قيمة السهم من سهامها ١١٥ جنيهاً و١٠ شلنات سنة ١٧٣٦ اي بعد انشائها بمئة وعشرين سنة . ثم زاد استعمال الناس لهذا الماء وزاد ربح الشركة فبلغ ثمن السهم منها ٤٣١ جنيهاً سنة ١٨٠٠ و ١١٥٠٠ جنيه سنة